٢ ـ الزاهـــدان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : وانتشر حديثُ السمكة في أهل (بلخ) ، واستفاض بينهم ، وكنتُ قَصَصْتُه عليهم يوم سبت . فلما دار السبتُ من أسبوعه لفيني شيخهم حاتم بن يوسف (لقمان الأمة) ومعه صاحبُه أبو تراب ، فقال : أحمد ! لكأنك في هذه المدينة قرطاع بلاد ، فلا يعظ الناسَ في يوم السبت غيرك ؛ ومن سمع فكأنه عاين ، وليس على ألسنة أهل بلخ منذ تحدثتَ إلا بِشْرٌ وابنُ حنبل ، ولا على بال أحد منهم إلا موعظتك وحديثك . والكلامُ عن الصالحين في مثل ما وصفتَ وحكيتَ قُربٌ من حقائقهم ، وسموٌّ إلى معانيهم ؛ وليس في القول بابٌ له موقع كموقع القصة عن هؤلاء الذين يخلقهم الله في البشرية خلقَ النور ، يضيءُ ما حوله من حيث يُرى ، ويعمل فيما حوله من حيث لا يُرى ، وفي ظاهره الجمال والنفحة ، وفي باطنه القوةُ والحياة . ولست أقول لك اذهب فحدِّث الناس ، ولكني أقول اذهب فأعط الناسَ عقلا من الحديث

قال ابن مسكين : فلما صلينا العصر قدمني أبو تراب فجلست في مجلسي ذاك ، وهتف بي الناسُ يريدون الحديث عن بشر الحافي وما سقط لي من أخباره على الطريقة التي حدثتهم بها من قبل ، فابتدأتُ بذكر موته رحمه الله وأن يومَه كان يوما اجتمع له أهل خمسٍ وسبعين سنة [1] ، إذ خرجت جنازته بعد صلاة الصبح فلم يحمل في قبره إلا في الليل مما احتشد في طريقه من الخلق ، حتى لكأن في نعشه سرا من أسرار الجنة في هذا ، فخرجوا ينظرون اليه ، وكانوا يصيحون في جنازته : هذا والله شرفُ الدنيا قبل شرف الآخرة

ثم قلت : حدثني حسين المغازلي [2] أن بشراً رحمه الله كان لا يأكل إلا الخبز تورعاً عن الشبهات واكتفاء لضرورة الحياة بالأقل الأيسر ، وكان يقول في ذلك : يدٌ أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأيّ شيء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافيةَ وأجعلها إداماً . وقد أعانه على ذلك أنه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً في نفسه حتى فضّل الامام أحمد بن حنبل بأشياء منها أن له أهلا ؛ غير أنه قيل له ذات يوم : لو تزوجت ثم نُسِّكت ؛ فقال : أخاف أن تقوم الزوجةُ بحق ولا أقوم بحقها ، فكانت هذه النية في نفسه أفضل من زواجه

وكان مع هذا لا يؤاكل أحدا ولا يسعى إلى لقاء أحد حتى إنه لما رغب في مؤاخاة الزاهد العظيم معروف الكرخي أرسل اليه الأسودَ بن سالم وكان صديقا لهما ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك ، وقد أرسلني اليك يسألك أن تعقد له فيما بينه وبينك أخوة يحتسبها ويعتدها ، إلا أنه يشترط فيها شروطاً : أولها أنه لا يحب أن يشتهر ذلك ، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة ؛ فقال معروف : أما أنا فاذا أحببتُ أحداً لم أحب أن أفارقه ليلا ولا نهاراً ، وأزوره في كل وقت ، وأؤثره على نفسي في كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوةً بيني وبينه ولكني أزوره متى أحببت ، وآمره بلقائي في مواضع نلتقي فيها إذا هو كره زيارتي

قال حسين المغازلي : وكان هذا كله من أمر بشر معروفاً في بغداد لا يجهله أحد من أهلها إذ لم يكن لبغداد إمام غيره وغير ابن حنبل ؛ فما كان أكثر عجبي حين كنت عنده يوماً وقد زاره فتح الموصلي ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إلى وقال : اشترلنا أطيب ما تجد من الطعام ، وأطيب ما تجد من الحلوى ، وأطيب ما تجد من الطيب ؛ وما قال لي مثل ذلك قط ، وهو الذي رأى الفاكهة يوماً فقال : ترك هذه عبادة ! وهو القائل لأبي نصر الصياد : لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة [1]

---

(١) مات رحمه الله عن خمس وسبعين سنة

(٢) نسبة الى محل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان — يعمر بعمل المغازل ويعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بني اعمل بيدك فان أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين . هكذا كانوا

(١) مر هذا في مقال (السمكة) في العدد الماضي من الرسالة

فذهبت فاشتريت وانتقيت وتخيّرت ، ثم وضعت الطعام بين أيديهما فرأيته يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، ورأيته منبسطاً إليه وما لى عهد كان بانبساطه إلى أحد . وقد كنت أخبرته فى ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل علمتُه من أدريس الحداد ؛ فانه لما زالت المحنةُ بعد أن ضُرب بين يدى المعتصم وصُرف إلى بيته ، حمل إليه مال كثير من سرّوات بغداد وأهل الخير فيها ، فردّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلا ولا كثيراً ، وهو محتاج إلى أيسره ، وإلى الأقل من أيسره ، وإلى الشىء من أقله ، فجعل عمّه اسحق يحسبُ ما ورد فى ذلك اليوم فكان خمسين الف دينار ، فقال له الامام : يا عم أراك مشغولا بحساب مالا يفيدك . قال : قد رددت اليوم كذا وكذا الفاً وأنت محتاج إلى حبة من دانق . فقال الامام : يا عم لو طلباه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه

* * *

قال المَازنى : فنمت تلك الليلة وأنا أفكر فى صنع الشيخ وقد تعلق خاطرى به كيف انقلبت الحال معه ، وأىّ شىء هذه الحال ، وجعلت أكدُّ ذهنى لأعرف الحقيقة العقلية التى سلّطت عليه هذه الضرورة فتسلط النعيم على نفسه ، وأنا أعلم أن للقوم علوماً روحانية ليست فى الكتب ، فمنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر ، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء ، ومنها ومنها ، ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبى إلى أوهام كثيرة ليس فى جميعها طائل ولا بها معرفة ، حتى غلبتنى عيناى وأنا من وهج الفكر نائمٌ كالمريض وقد ثقل رأسى واختلط فيه ما يُعقل بما لا يُعقل

فرأيت أول ما رأيت ملكا جباراً يحكم مدينة عظيمة وقد أطلق المنادى فى جمع كل أطفال مدينته فجىء بهم من كل دار ، ثم رأيته قد جلس على سريره وفى يده مقراض عظيم قد اتخذه على هيئة نصلين عريضين لو وضعت بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابع إحدى قدميه فى شقّ المقراض فيقرضها فاذا هى تتناثر أسرع مما يقرض المِقصُّ الخيط ، ثم يرمى بالطفل مغشياً عليه ويتناول غيره فيبتر أصابعه والأطفال يصرخون ؛ وأنا أرى كل ذلك أملك إلا غيظى على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمرّ فيه هذا الغيظ فأفرضَ عنقه بمقراضه

ثم رأيته يأخذ طفلا صغيراً ، فلما جاءت قدم الطفل بين المقراض صاح : يارب ، يارب ! فاذا المقراض يلوى فلا يه شيئاً وكأن فيه حجراً صَلداً لا قدماً رَخْصَة . فتميز ام من الغيظ وقال من هذا الطفل ؟ فسمعت هاتفاً يهتف : هذا ا الحانى ! لا يبلغ تاج ملك فى الأرض أن يكون لقدمه الحافية عند الله !

وكان إلى يمينى رجل يَتَمضوأ وجهه صلاحاً وتقوى فقلت له : من هذا الطاغية ؟ ولم اتخذ المقراض لأقدام الأط خاصة ؟

فقال : ياحسين ! ان هذا الجبار هو ذل العيش ، وهذا و لأهل الحياة على الأرض يحقق به فى الانسان معنى البهيمة أو ما يدب على الأرض حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدم

قلت : فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المقراض ؟

قال : إن لله عباداً استخصهم لنفسه ، أول علامته فيهم الذل تحت أقدامهم ، وهم يجيئون فى هذه الحياة لاثبات القد الانسانية على حكم طبيعة الشهوات التى هى نفسها طبيعة الذل فاذا اطرح أحدهم الشهوات وزهد فيها ، واستقام على ذلك ، عقد نية وقوة ارادة ، فليس ذلك بالزاهد كما يصفه الناس ، ولك رجل قوى اختارته القدرة ليحمل أسلحة النفس فى معارك الطاحنة ، كما يحمل البطل الأروع أسلحة الجسم فى معارك الدامية . هذا يُتعلم منه فن وذاك يُتعلّم منه فن آخر ، وكلاه يرمى به على الموت لأيجاد النوع المستمر من الحياة ، فأول فضائل الشعورُ بالقوة ، وآخر فضائله ايجاد القوة

* * *

قال المَازنى : وضرب النوم على رأسى ضربة أخرى فاذا أ فى أرض خبيثة داخنة قد ارتفع لها دخان كثيف أسود يتضرب بعضه فى بعض ، وجعلت أرى شعلاً حمراً تذهب وتجىء كأنها أجسام حية ، فوقع فى وهمى أن هؤلاء هم الشياطينُ : ابليسُ

جنودُه وسمعتُ صارخاً يقول : يا بشرى ! فلبيك السماءُ على الأرض ، لقد أكل بشر الحافى من أطيب الطعام وأطيب الملوى بعد أن استوى عنده حجرها ومدَرُها ، وذهبُها وفضتها ! فعارضه صائح أسمع صوته ولا أرى شخصه : ويلك يا زلنبور [1] ! إن هذا شر علينا من عامة نُسكه وعبادته . هذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذى كان لا يطيقه بشر ؛ إنه إعنات للنفس وتسلّطه على نفسه ، فانى دفعتُ هذا (المغازلىّ) الأعمى القلب المزين له ما فعل أحمد بن حنبل من رده خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعاً وقوةَ عزم ونفاذَ إرادة ؛ وقلت عسى أن يتحرك فى نفسه شهوةُ الزهد فيجدَ أو يثار ، أو تعجبه نفسه فيكون لى من ذلك لمّةٌ بقلبه فأوسوس له فانا نأتى هؤلاء من أبواب الثواب كما نأتى غيرهم من أبواب المعاصى ، ونتورّع مع أهل الورع كما نتسخّف مع أهل السخف ؛ ولكن الرجل رجل وفيه حقيقةُ الزاهد ، فقد أعطى القوة على جعل شهوات نفسه أشخاصاً حية يعاديها ويقاتلها ، فاذا أنا جعلت شهوته فى اللذة قتل اللذة ، وإذا جعلتها فى الكآبة قتل الكآبة ، وليس الزاهد العابد هو الذى يتقشف ويتعفف ، ويتخفف ويتالف ، فان كثيراً ما تكون هذه هى أوصاف الذل والحمق ويكون لها عمل العبادة وفيها إثم المعصية ، ولكن الزاهد حقّ الزاهد من أدار فى الأشياء عيناً قد تعلمت النظر بحقه والاغضاءَ بحقه ؛ فهذا لا يخطىء معنى الشر إن لبّسناه عليه فى صورة الخير ، ولا معنى الخير إن زوّرناه فى صورة الشر ، وبذلك يضع نفسه فى حيث شاء من المنزلة ، لا فى حيث شاءت الدنيا أن تضعه من متازلها الدنيئة

وما أكلَ بشرٌ هذه الطيبات إلا ليبادر بها وسوستى ويردّنى عن نفسه وعن اللّمة بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهد ابن حنبل ونظر من ذلك إلى زهد نفسه لحبط أجره . فهذه الطيبات عالج نفسه علاج مريض ، وقد غير على جوفه طعاما بطعام ، كما يبدّل على جلده ثوباً بثوب ، ولا شهوة للجلد فى أحدهما

* * *

قال المغازلى : وثقل النوم على تفلةً أخرى فرأيتنى فى واد عظيم وفى وسطه مثل العمود من الحجارة قد ركم بعضُها على بعض . ورأيتنى مع بشر أقصُّ عليه خبر احمد بن حنبل ؛ فقال انظر ويحك ؛ إن الناس يسمونها خمسين ألف دينار وهى هنا فى وادى الحقائق خمسون ألف حجر لو أصابت أحمد لقتلته ولكانت قبره آخرَ الدهر

إن المال يا بنى هو ما يعمله المال لا جوهره من الذهب والفضة ، فاذا كنت بمفازة ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك فالتراب والذهب هناك سواء . والفضائل هى ذهب الآخرة ؛ فهنا تجدد بالمال دنياك التى لا تبقى أكثر من بقائك ، وهناك تجدد بالفضائل نفسك التى تخلد بخلودها

ومعنى الغنى معنى ملتبسٌ على العقول الآدمية لاجتماع الشهوات فيه ، فحين يردّ احمد بن حنبل خمسين ألفا ، يكون هذا المعنى قد صحح نفسه فى هذا العمل وجهاً من التصحيح

* * *

قال حسين المغازلى : وغطّنى النوم فى أعماقه غطّةً أخرى فاذا أنا فى المسجد فى درس الامام احمد وهو يحدث بحديث النبى صلى الله عليه وسلم : إذا عظّمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبةُ الاسلام ؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حُرموا بركة الوحى . وهم أن يتكلم فى تفسيره [1] ولكنه رآنى فأمسك عنه وأقبل على فقال : ياحسين ! إذا اجتزأ شيخك بالرغيف فهذا عنده هو قدر الضرورة ، فان أكل الطيبات فقد عرضت حالٌ جعلت هذه الطيبات عنده هى قدر الضرورة . وفى هذه النفوس السماوية لا يكون الجزء الأرضىُّ إلا محدودا ، فلا يكون محصوله إلا ما تؤدى من قدر الضرورة

ولما صغُر الجزء الأرضى فى نفوس المسلمين الأولين ملكوا الأرض كلها بقوة الجزء السماوى فيها ، إذ كانت إرادتهم فوق الأطماع والشهوات ، وكانت بذلك لا تذل ولا تضعف ولا تنكسر ؛ فالآدمية كلها تنتهى إلى بعض صورهم هؤلاء الذين عملُهم فى أعلاها

(١) هذا اسم بعض ولد ابليس فيما يروى ، وفى بعض النسخ التى بأيدينا انه خنزب لا زلنبور ... ...

(١) سيأتى تفسيره فى مجلس آخر من مجالس ابن مسكين